السورة العاشرة

قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤ ﴾

هذه هي السورة التاسعة في الترتيب العكسيّ لسوَر القرآن الكريم. تتكوّن من ١٧ كلمة، ويصل عدد النقاط الإعجازية الجديدة فيها ممّا وضعنا يدنا عليه إلى ٢٧ موقعاً.

وتُحقّق السورة تميّزَها اللغويّ عن باقي سوَر القرآن بارتباطها نحويّا، على رأي أكثر المفسّرين، بسورة (الفيل) التي سبقتها، ولا يحدث مثل هذا النوع من الارتباط بين أيّ سورتين أخريين في القرآن الكريم. ثمّ إنها تتفرّد بألفاظٍ ثلاثةٍ تقتصر عليها وحدها (إيلاف، قريش، آمَنهم) وبستّة تعبيراتٍ، هي في الحقيقة كلّ تعبيرات السورة، لا يشاركها فيها أيٌّ من السور الأخرى، وهي ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ، إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ، رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ، أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ، وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- ٢- لإيلاف/ إيلافهم:

لا يرِد اللفظ (إيلاف) في الشعر الجاهليّ، بل إنّه يختفي تماماً ولقرونٍ عديدةٍ في تراثنا الشعريّ والأدبيّ، إلا في معرض الحديث عن هذه السورة. والبديل عنه هو على الأغلب (اعتياد، تعوّد، عادة، دأب، دَيْدَن، أُلفة).

ولا يتكرّر اللفظ في القرآن خارج هذه السورة، فهو من خصوصيّاتها. ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

٣- فليعبدوا:

يعيدنا هذا اللفظ إلى حديثنا عن الفعل (نعبد) ومعناه الإسلاميّ الجديد في سورة (الفاتحة): ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ونتذكّر كيف فرّقنا بين (العبادة) بالمعنى القرآنيّ و (العبوديّة) بالمعنى البشريّ المتداول وهو الرقّ.

ونؤكّد هنا مرةً أخرى جدّة استعمال هذا الفعل وقرآنيّتَه، وأنّ العبوديّة لله علاقةٌ إيجابيّةٌ تقوم على الحبّ المتبادل بين الطرفين، وعلى الرغبة والرهبة معاً من الطرف الأوّل (الإنسان) نحو الطرف الثاني (الله)، على حين تكون هذه العلاقة في العبوديّة البشرية علاقة تنافرٍ وكراهية، مع سعي أحد الطرفين باستمرار(العبد) للتخلّص من الطرف الآخر (السيّد).

٤- آمنَهم:

نعثر على هذا اللفظ مرّتين في الشعر الجاهليّ، ولكنّ استعماله في المرّتين يختلف تماماً عن الاستعمال القرآنيّ. يقول تأبّط شرّاً (ت٨٥ ق.هـ):

تالله آمَنُ أنثى بعدما حلفَتْ أسماءُ باللهِ مِن عهدٍ وميثاقِ

openkan.com

فمعناه في البيت كما هو واضح: أثِق بـ، أو أُصَدِّق؛ أي إنّه لن يمنح ثقته أيّة امرأةٍ بعدما نقضت أسماء يمينها وعهدها معه، أمّا في الآية فهو، على عكس البيت الجاهليّ، يعني: أمّنهم، أو منحهم الأمان.

ويقول سلامة بن جندل (ت٢٣ ق.هـ):

كالصَعْدَةِ الجَرداءِ آمَنَ خَوفَها لَطَفُ الدواءِ وأكرمُ الأعراقِ

وقد استُخدم الفعل في البيت استخداماً مغايراً للاستخدام القرآنيّ؛ إذ تعدّى فيه إلى الخوف (آمَنَ خوفَها) فهو بمعنى (أبعَدَ) أو (أزالَ) أو (هدّأ) على حين تعدّى في الآية إلى الخائف نفسِه وهو الضمير (هم) في (آمنهم) فكان بمعنى (منحهم الأمان).

ورغم ورود مشتقّات الفعل مرّاتٍ عديدةً في القرآن الكريم، فإنّ هذا الاستعمال للّفظ من خصوصيّات السورة أيضاً إذ اقتصر عليها وحدها. أمّا الفعل المضارع (آمنُكم) في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ ﴾ [يوسف: ٦٤]

فمن الواضح أنّ معناه يختلف عن معنى الفعل في سورة (قريش). إنه يعني هنا (أثق بكم أو بأمانتكم)، وهو بعيدٌ عن معنى (منح الأمان) كما هو في السورة، وقد تعدّى في آية سورة (يوسف) إلى المَخُوف منه (إخوة يوسف) على حين يتعدّى هنا إلى المَخُوف عليه.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- لإيلاف:

وقفنا سابقاً عند آياتٍ تُشكّل ظاهرةً لغويّةً جديدةً في القرآن، وذلك حين وجدنا هذه الآيات، خلافاً لأعراف الوحدة اللغويّة الأساسيّة وتعريفاتها في اللغة العربيّة، تبدأ بصفةٍ أو بدلٍ أو جارٍّ ومجرور.

ولكنّ الوضع هنا يبدو أشدّ بروزاً وأكثر إثارةً لدهشة من سمع السورة لأوّل مرّةٍ ممّن عايشوا فترة نزول الوحي خاصّةً، فليست الآية وحدها هي التي تبدأ هنا بجارٍّ ومجرور، وإنّما السورة بأكملها.

وممّا يزيد من بروز هذه الحالة، ويضاعف من أهمّيتها، اختفاءُ المتعلَّق الذي سنعلّق به شبه الجملة هذا، اختفاءً اضطَرّ بعضَ المفسّرين إلى البحث عنه في سورة (الفيل) التي تسبق هذه السورة مباشرةً، وهو أيضاً أمرٌ غير مألوفٍ للعربيّ الأوّل، بل لم يعرفه العرب حتى اليوم في أيّ نوعٍ من الأنواع الأدبيّة المعروفة، بل لا وجود له في القرآن الكريم في غير هذا الموقع.

وقد نطق الفرّاء (ت٢٠٧هـ) بلساننا حين عبّر عن هذه الدهشة بقوله: "يقول القائل: كيف ابتُدئ الكلام بلامٍ خافضةٍ ليس بعدها شيءٌ ترتفع به؟"[١] أي ليس بعدها مبتدأٌ مؤخَّرٌ تكون هي مع مجرورها خبراً مرفوعاً متقدّماً له (أي يتعلّقان بهذا الخبر المقدّر).

والتقدير، على وجه من علّقوا اللام بالسورة السابقة، سيكون كما يلي: (فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريشٍ) (أي أهلك الله أصحاب الفيل من أجل الحفاظ على قريش واعتيادهم القيام برحلتَيهم في الشتاء والصيف).

٢- إيلافِهم رحلةَ:

واختلفوا حول المعنى الدقيق لهذا التعبير، وأيّاً كان تقديرُنا أو تفسيرنا فإنّه يظلّ جديداً على العربيّ الأوّل الذي كان، على الأغلب، سيعبّر بلغته العاديّة عن معناه بشيءٍ من هذا القبيل: اعتيادهم على الارتحال، أو: تعويد الله لهم على الارتحال.

---

(١) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الفتاح اسماعيل شلبي. القاهرة: دار السرور، د. ت، ص٢٩٣.

٣- إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصّيف:

مرّةً أخرى، وخلافاً لأعرافنا اللغويّة، تبدأ هذه الوحدة اللغويّة المستقلّة؛ أي الآية، ببدلٍ تابعٍ للَفظٍ في آيةٍ سبقتها، وإن كان هذا البدل عاملاً فيما بعده بحيث يمكن أن يشكّلَ مع اللفظ (رحلة) جملةً كاملةً، كما أوضحنا، مؤلَّفةً من مصدرٍ مع فاعله ومفعوله، أو مفعوليه.

٤- رحلةَ الشتاءِ والصيف:

هذا الإخبار باثنين (الشتاء والصيف) عن لفظٍ مفردٍ (رحلة) نكتةٌ لغويّةٌ لطيفةٌ تنبّه إليها الزمخشريّ في (كشّافه)، ويُعدّ خروجاً على العرف اللغويّ الذي يقتضي أن يقال: رحلتَيْ الشتاء والصيف. وأنا أرى مع ذلك أنّ اللفظ (رِحلة)، وهو أمرٌ خاصٌّ بالقرآن وحده أيضاً، جاء بمعنى المصدر وليس بمعنى اسم المرّة. إنّه هنا بمعنى (رحيل) أو (ارتحال) أو (ترحّل) وليس بمعنى (الرحلة الواحدة) كما اعتدنا استعماله، ممّا يؤهّله للإضافة للمثنّى رغم أنّه مفرد، كقولنا مثلاً:

زيارة القبور والمرضى سُنّة

من غير أن نعني بهذا زيارةً واحدة، رغم إفرادنا للّفظ.

٥- فلْيعبدوا:

هذا النوع من الأمر الموجّه إلى الغائب أو الغائبِين، والمرتبط دائماً بالواو أو الفاء، ربّما عرفته لغتنا البشريّة على ندرة، ولكنّ القرآن الكريم حوّله، بتكراره المتعدّد فيه، إلى ظاهرةٍ واضحةٍ في لغته، وأسلوبٍ مميَّزٍ من أساليبه.

والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في الكتاب الكريم، ومنها في صيغة الجمع: (فلْيستجيبوا، فليتّقوا، فليرتقوا، فليأتوا، وليؤمنوا، وليعْفوا، وليَصفَحوا، وليقولوا، وليأخذوا) ومنها في صيغة المفرد: (فلينظر، فليمدُد، فليتوكّل، فليكتب، فليعمل، وليتلطّف، وليحكم، وليخشَ..).

٦- فلْيعبدوا ربّ:

(الإخبار) في علم البلاغة هو أن تُخبِر عن شيءٍ بجملةٍ قابلةٍ للتصديق أو للتكذيب، كأن تقول: أنا مسافر، فيمكن أن يقال لك حينئذٍ: أنت صادقٌ أو أنت كاذب. أمّا عكسه (الإنشاء) فهو طلبٌ، من أمرٍ أو نهيٍ أو استفهام، لا مجال معه للتصديق أو التكذيب، فلا تستطيع أن تقول: أنت صادق، أو: أنت كاذب، لمن يسألك: هل أنت مسافر؟ أو لمن يأمرك: سافِرْ، أو لمن ينهاك: لا تسافرْ، فهذه كلّها جملٌ إنشائيّةٌ طلبيّةٌ لا تحتمل التصديق والتكذيب.

لقد بدأ الخطاب في السورة بالصيغة الحياديّة الإخباريّة القابلة للتصديق والتكذيب: إنّ لقريشٍ عاداتهم وترحالهم، ولكنّه تحوّل عن الإخبار فجأةً إلى الإنشاء، ليُصدر لهم أمراً -وبصيغة الغائب أيضا: (فلْيعبدوا هم)، بدلاً من صيغة المخاطَب المألوفة عادةً مع الأمر: (فلتعبُدوا أنتم)- مستخدماً (لام الأمر) لتحقيق هذا التحوّل أو "الالتفات" من صيغةٍ إلى صيغة، وهو الفنّ الذي لم يعرفه العرب، كما أثبتنا، قبل نزول القرآن الكريم.

٧- هذا البيت:

اعتدنا أن نستخدم أسماء الإشارة لندلّ بها على ما نحتاج إلى أن نشير إليه، أو ما هو أمامنا بحيث نراه حقّاً، بعيداً كان أو قريباً، فنقول: هذه الأرض، وذلك الجبل، وتلك الباخرة، حين نحاول تمييزها عمّا سواها من الأراضي والجبال والبواخر.

أمّا (البيت) هنا، وقد اقترن بذكر ربّه، فما كنّا، بلغتنا العاديّة، لنستخدم اسم الإشارة معه، بل نقول: فليعبدوا ربّ البيت، من غير إشارةٍ، وهذا ما حدث حقّاً في كلّ مرّةٍ أخرى تكرّر فيها هذا اللفظ في القرآن خارج هذه السورة (١٣ مرّة)، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]

- ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨]

- ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ ﴾ [الأنفال: ٣٥]

وهذه الإشارة القريبة إلى البيت (هذا) استعمالٌ خاصٌّ بهذه السورة لا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٨- ربّ البيت:

هذا تعبيرٌ جديدٌ سبق إليه القرآن الكريم، فضلاً عن أنّ سورة (قريش) تختصّ به وحدها دون بقيّة السوَر.

٩- ١٠- أطعمهم مِن/ آمَنَهم مِن:

إنّهما استعمالان قرآنيّان خاصّان لهذين الفعلين ومميَّزان جداً؛ إذ لم يستخدمهما أحدٌ من العرب فيما نعلم، لا قبل الإسلام ولا بعده، متعدّيين بحرف الجرّ (مِن)، إنما قالوا، ونقول مثلهم أيضاً:

أطعمهم، أو:

أسكتَ جوعهم، أو:

أطعمَ جائعهم، أو:

أطعم الجائع منهم، أو:

خفّف عنهم الجوع، أو:

أطعمهم بعد أن كانوا جائعين.

كما قالوا ونقول:

أمّنهم، أو:

أمّنهم من خوفهم، أو:

أمّنهم من الخوف، أو:

أمّن خائفَهم، أو:

أمّنهم بعد أن كانوا خائفين.

ومرّةً أخرى يقتصر استعمال التعبيرين كليهما على هذه السورة وحدها دون بقيّة السوَر.

١١- ١٢- جوع/ خوف:

إنّ تنكير اللفظين هنا هو أيضاً لغةٌ قرآنيّة. لاحظوا كيف جاء اللفظ (جوع) واللفظ (خوف) في الأمثلة البشريّة التي اقترحناها في النقطة السابقة مُعرَّفَين دائماً، إمّا بالإضافة إلى الضمير، وإمّا بـ (ال) التعريف. وفي هذا التنكير حكمةٌ وبلاغةٌ قرآنيّةٌ كما سوف نرى.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- لإيلافِ قريشٍ إيلافِهم:

إنّ ما قدّمناه عن خصوصيّة تعليق شبه الجملة (لإيلاف)، وكذلك تكرار المصدر نفسه (إيلاف) بعد لفظ المضاف إليه (قريش) وموقعُه الإعرابيّ المميَّز، يمنح العبارة بناءً إيقاعيّاً مـميّزاً، ويجعل منها سبيكةً شديدة الخصوصيّة، وهي سبيكةٌ تقتصر على سورة (قريش) وحدها.

٢- ٣- أطعمهم من جوعٍ/ آمنَهم مِن خوف:

التركيب الخاصّ لكلّ من هاتين الجملتين، كما رأينا، ثم اجتماعُهما، وتعاطفُهما الواحدةِ على الأخرى، مع التناظر والتطابق الكاملين بينهما، يجعل من كلٍّ منهما سبيكةً قرآنيّةً مميّزة، لا نجدها في تراثنا الأدبيّ القديم أو الحديث، ولا تتكرّر في أيّ موقعٍ آخر من القرآن.

رابعاً: مواقع منفتحة

من المهمّ التذكير أوّلاً بأنّ انفتاح أيّ لفظٍ أو تعبيرٍ نتوقّف عنده في لغة القرآن الكريم لا يعني تساوي هذه الألفاظ أو التعبيرات في قوّتها الإشعاعيّة، أو في عدد الأبعاد أو الأطياف أو المعاني التي تحتملها.

وبقدر ما تزداد احتمالات المعاني والشروح، واحتمالات الإعراب والتخريج للّفظ أو التعبير، وكذلك اختلافات المفسّرين واللغويّين حوله، تزداد قوّةُ إشعاعه، ومن ثمّ قابليّته للتصنيف تحت هذا النوع من المواقع الانفتاحيّة الجديدة في القرآن.

هذا التفاوت في درجات المواقع الموحية أو المشعّة سوف يظهر لنا من خلال تحليلنا لهذه النقاط اللغويّة في السورة:

١- لإيلاف قريش:

هناك مولّدان للطاقة الإشعاعيّة الموحية في قوله تعالى (لإيلاف): الأوّل هو اللام والثاني هو مجرورها (إيلاف).

أمّا اللام فقد كان تعليقها أحدَ أهمّ النقاط التي أشكلَت على المفسّرين. فذهب بعضهم إلى أنّها للتعجّب، وهذا يعني تقدير فعل الأمر (اِعجب) قبلها لتتعلّق به، فيكون المعنى: اِعجب لأمر تعَوُّد قريش.

وذهب آخرون إلى أنّ التقدير هو: انظر، أو اسمع، أو التفت لاعتياد قريش، أو: عد بالحديث أو الذكر إلى أمر ذلك الاعتياد.

وذهب آخرون إلى أنّ اللام متعلّقةٌ بالفعل (فليعبدوا) الذي يليها، رغم ارتباطه بالفاء التي تفصل بينه وبينها، وهو ما يمنع، في رأي كثيرٍ من النحويين، إمكان تعليقها به، ولكن أجاز ذلك بعضُهم على حياء.

ولكن الأخطر من هذا ما ذهب إليه بعض المفسّرين، كما ذكرنا، من أنّ اللام للتعليل، أي بمعنى: من أجل، أو بسبب، وهي، على ذلك، معلَّقةٌ بالفعل (جعل) في الآية الأخيرة من سورة (الفيل) التي تسبق هذه السورة مباشرةً، ليكون المعنى هكذا: فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ من أجل إيلاف قريشٍ وحماية تجارتهم ورحلاتهم. وبهذا تُعامَل السورتان نحويّاً وكأنّهما سورةٌ واحدةٌ رغم انفصالهما ووجود البسملة بينهما، وهو أمرٌ عجيبٌ لم يقع إلاّ لهاتين السورتين.

أمّا (إيلاف) فتستمدّ طاقتها الإشعاعيّة من احتمال تفسيرها:

أ- على أنّها اسمٌ بمعنى (عادة) أو (اعتياد) فيكون المضاف إليه فيها هو الاسم المذكور بعدها (قريش)، أو:

ب- على أنّها مصدرٌ يحمل معنى الحدَث، أي بمعنى (تعويد) فيكون المضاف إليه الحقيقيّ فيها محذوفاً وتقديره هو لفظ الجلالة (الله)، ويكون المعنى على هذا التقدير: تعويد الله لقريشٍ رحلةَ الشتاء والصيف.

ولا شكّ أن تداخل وتقاطع الإشعاعات المعنويّة المتباينة الصادرة عن كلٍّ من جزءي الكلمة سيولّد المزيد من الأطياف والألوان الجديدة لمعانيهما.

٢- إيلافهم:

وقع على هذا اللفظ اختلافٌ آخر بين المفسّرين، يضاف إلى الخلاف الذي وقع على صنوه (لإيلاف).

فالضمير (هم) بمثابة الفاعل هنا، في رأي بعضهم، فكأنّما قال: ما آلَفَتْهُ قريشٌ، ويكون اللفظ (رحلةَ) مفعولاً به للمصدر (إيلاف) أي: آلفتْ قريشٌ رحلةَ..

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّ الفاعل غير ظاهرٍ وهو (الله)، وأنّ الضمير (هم) هو مفعولٌ أوّل، و(رحلةَ) مفعولٌ ثانٍ. والتقدير على هذا -كما بيّنّا أعلاه-:

آلَف اللهُ لهم رحلتَهم،

أو بصيغةٍ أخرى:

آلف (أي عوَّد) اللهُ قريشاً رحلتَهم.

ومن تقاطع هذه التفسيرات، أو الإعرابات، يَغنى اللفظ ويكتسب طاقته الإضافيّة الموحية من خلال تعدّد شروحه وتعدّد أبعاده.

٣- رحلةَ الشتاءِ والصيف:

أكثرُ المفسّرين على أنّ هذه الرحلة كانت إلى اليمن في الشتاء وإلى الشام في الصيف.

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّها بين مكّة والطائف، وذهب آخرون إلى أنّ الرحلات لم تكن رحلات قريشٍ إلى البلدان الأخرى، بل هي رحلات الآخرين إلى قريش، فكأنّ الله يمُنّ عليهم أن أتى إليهم في عقر دارهم بأهل الشام واليمن وغيرهم، صيفاً وشتاءً، إمّا حجًّا وإمّا عمرةً، ليجلبوا إليهم السلع والبضائع من كلّ مكانٍ وهم يحجّون ويعتمرون إلى مكّة.

وإذن، فإنّ الله تعالى يمنّ على قريشٍ بوجود البيت، وبحماية هذا البيت ومَن حولَه من كلّ معتدٍ، مثلما حماه من أصحاب الفيل، فألِفه الناس وألِفوا أهله، بل صار أبناء قريش في أمانٍ من أي اعتداءٍ، حتى وهم مسافرون خارج مكّة، لأنّ جميع القبائل لها مصالح أساسيّةٌ مع قريشٍ ما دامت ملتزمةً بالحجّ أو العمرة إلى مكّة كلّ عام، فكانت هذه القبائل حريصةً على إقامة علاقاتٍ متينةٍ وآمنةٍ معها، وهي ميزةٌ عظيمةٌ لأهل قريش لم تكن لأحدٍ غيرهم.

٤- فليعبدوا:

محور تعدّد الأبعاد في هذا اللفظ هو الفاء. فقد عدّها بعضهم ابتدائيةً (أو: حسب ما قبلها، كما يسمّيها النحاة) لأنّ الكلام يبدأ بها وإن تأخّرت، والتقدير: فليعبد أهلُ قريشٍ اللهَ لإيلافِهِ لهم رحلتَهم.

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّها استئنافيّة، لأنّ الكلام استؤنِف بها، ولم يبدأ بها، بعد أن ذكّرهم الله قبلها بالإيلاف وتفضُّلِه به عليهم.

وذهب آخرون إلى أنّها الشرطيّة، ويدافع الزمخشريّ عن وجهة النظر هذه بقوله: "فإن قلت: فلِمَ دخلَت الفاء؟ قلت: لما في الكلام مِن معنى الشرط، لأنّ المعنى: إمّا لا؛ فليعبدوه لإيلافهم، على معنى: أنّ نِعَم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نِعَمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمةٌ ظاهرة".[1]

٥- أطعمَهم مِن جوعٍ:

هناك أكثر من مصدرٍ إشعاعيٍّ واحدٍ في هذه الجملة يغنيها بالأطياف الموحية والأبعاد المتعدّدة.

فتجريد اللفظ (جوعٍ) من (ال)، ونقلُه بذلك من التعريف إلى التنكير، حرّره من قيود التعريف التي تحصر المعنى عادةً بأمرٍ واحد.

فلو قال (الجوع) لكان هو الجوع الذي نعرفه جميعاً، ولكنّ تنكيره فتح أمامنا احتمالاتٍ عدّةً لفهمه وتفسيره:

أهو نقص الطعام فقط لقلّة المصادر الغذائيّة في أرض مكّة؟

أم هو الفقر عامّةً والنقص في الأموال والثمرات وكلّ شيء؟

أم هو نقص الأنفُس والموارد البشريّة؟

ومِن جهةٍ ثانية:

هل الأداة (مِن) هنا للتقليل أو التبعيض، أي خفّف عنهم بعضَ الجوع؟

أو هي بمعنى (بدَلَ) أي أسبغ عليهم الإطعام بدَلَ الجوع؟

---

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٤، ص٨٠٦.

أو بمعنى (عن) -كما يذهب المُرادي- أي: أطعمهم عن جوعٍ، أو: على جوعٍ، أي: وهم على جوع؟[1]

وهل الإطعام في (أطعمهم) يقتصر على الطعام، أو يشمل المأكل والملبس والمأوى والمال والولد وسائرَ تكاليف الحياة؟

٦- آمَنَهم مِن خوف:

ينطبق على هذه الجملة ما انطبق على الجملة السابقة من احتمالاتٍ وتعدّديّةٍ في الأبعاد والمعاني، ولا سيّما في تنكير اللفظ (خوف).

خامساً: جوامع الكَلِم

١- رحلةَ الشتاء والصيف:

هذه العبارة القرآنيّة قد تطلَق في مجال الحديث عن أمرٍ يتكرّر جيئةً وذَهابا، على شكلٍ واحدٍ أو على أكثر من شكل، أو الحديث عن عادةٍ لها أوقاتٌ ثابتة، سنويّةٌ أو فصليّةٌ أو شهريّة، أو أقلّ من ذلك أو أكثر، كأن تقولها لمن يعاوده المرض بين حينٍ وآخر، أو لمن يتردّد متنقّلاً بين بلدين، أو لمن لا يفتأ يطالبك، في الذهاب وفي الإياب، بأمرٍ أو دَينٍ أو إتاوةٍ.

٢- أطعمهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خوف:

عبارةٌ يمكن أن نصف بها من قام، أو يقوم، برعاية قومٍ أو أسرةٍ أو حيوانٍ خير رعاية، بحيث يضمن سلامتهم ويؤمّن لهم كلّ حاجاتهم المعيشيّة المطلوبة.

---

(١) المرادي، الحسن بن قاسم. **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٢م، ص٣١١.